

فقه السياسة في رسالة النبي إبراهيم (ع)



الواقع الاجتماعي من خلال القرآن الكريم:

يمكننا متابعة الواقع الاجتماعي لرسالة إبراهيم في القرآن الكريم من خلال الوقفات الآتية:

1- كانت الإمامة أكبر الابتلاءات لإبراهيم (ع)؛ وهي تكليف لا تشریف: (وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) (البقرة/ 124).

2- أساس الإمامة وسبيل الوصول إليها ليس النسب، وإنما العدل: (.. قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة/ 124).

3- توحيد التوجه والهدف مهم جداً في البناء الجماعي والإيماني: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...) (البقرة/ 125).

ومجاهد: أنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه، قال الله تعالى: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) (إبراهيم/ 37)، وقيل مثابة؛ أي يحجسون إليه، فيؤمنون عليه.

4- دعوة إبراهيم (ع) كانت خالصة في طلب الأمن ورزق الناس من الطيبات؛ فهي دعوة واقعية تلبس

الإحتياجات المُتجمعة للمُسلم وغيره؛ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة/ 126).

5- أهمية المكان في الدعوة كانت بادية في رفع الفواعد من البيت، وذلك من قبيل إبراهيم وإسماعيل (ع): (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...) (البقرة/ 127).

6- كان هدف إبراهيم وإسماعيل بناء الذرية المكوّنة للأُمَّة المُسلمة؛ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ...) (البقرة/ 128).

7- إستمرار الرِّسالات ضرورة من ضرورات الوجود البشري؛ (رَبِّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...) (البقرة/ 129).

8- السُّفهاء وأهل الجهل هم الرّساغبون عن مِلَّة إمام الحنفاء إبراهيم (ع): (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - إِبْرَاهِيمَ - إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...) (البقرة/ 130).

9- الأنبياء والمرسلون أعلى الناس عقلاً وحكمة، وتجلّى ذلك في مُ حاجة إبراهيم (ع) للذمُروء.

10- كان إنتماء إبراهيم (ع) إسلامياً خالصاً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فهذه مناهج اعتراضها التّحريف والتّبديل، فكانت الحاجة ماسّة للرّجوع إلى عهد التوحيد الخالص، فكانت دعوة إمام المرسلين سيّدنا محمد (ص)، وفي ذلك قوله تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا...) (آل عمران/ 67).

11- لم تمنع العلاقة الإجتماعية بين إبراهيم وأبيه - والتي حافظ عليها إبراهيم (ع) غاية المُحافظة حتى النهاية - لم تمنعه من الجدّ بدعوة □ - تعالى - وعدم المُجاملة على ثوابت الدّين؛ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا آلِهَتِي إِنَّنِي أَنرَأِي سُرِّيًّا وَأَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنعام/ 74)، أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: (أزر الصّنم، وأبو إبراهيم اسمه يازر، وأُمُّه اسمها سارة، وسريّته أمُّ إسماعيل اسمها هاجر).

12- كانت ظاهرة الوصول إلى اليقين عن طريق آيات الكون واضحة وبادية في حوار إبراهيم (ع) مع الكواكب؛ (فَلَمَّا سَا جَنَّ عِلْمَهُ الْوَالِدِ الرَّأْيِ كَوَّكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا سَا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا سَا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا سَا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا سَا رَأَى الشَّمْسَ سَا بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا سَا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام/ 76-78).

13- ربُّ ما يُضطرُّ الدُّعاة إلى □ تعالى - وعلى رأسهم الرُّسُل - للهجرة والانتقال إلى مكان

يُؤَسِّسُونَ فِيهِ فُؤَادَ الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ الْوَطَنَ الْجَدِيدَ الَّذِي يَحْمِي الدَّعْوَةَ؛ (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم/ 37).

14- الثابت على الحقِّ يُمثِّلُ أُمَّةً، فلا عبرة بكثرة الهالكين: (إِنِّي إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا مَ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل/ 120).

15- إعتزال الباطل مفتاح الخير؛ وهو شخصي إن لم يكن مُجتمعياً: (فَلَمَّا اعْتَرَلَ هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَيَّبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) (مريم/ 49).

16- لم يكن شاغلُ الرُّسُلِ الإجماعي داعياً لتفريطهم بلبنة البناء الإجماعي؛ وهو الأسرة: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) (مريم/ 55).

17- المُواجهة بين الحقِّ والباطل لا بُدَّ منها، وذلك بعد أن يعجز الباطل عن إقامة الحجَّة على الحقِّ، ظهر ذلك جلياً في سورة الأنبياء: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي يُسَبِّحُونَ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاكِرِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوزًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّنَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُو كُرْهُمُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِنَا النَّاسِ لَعَلَّ هُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْزَلَتْ فَعَلَّتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْدَظِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْدَظِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّ قُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

إستمرار سلسلة الرسائل في الدور المتعاقبة، باعتبار أن البلاغ مسؤوليَّة الجميع، وقد خصَّ الدُّعاء ببعث الرسول الكريم مُحَمَّد (ص) بوصفه مُتميِّزاً بختم الرسالة. 7- الأسرة هي أساس البناء الرِّصين لإعداد الأُمَّة، وقد ظهر واضحاً الإشكال الكبير الذي ولَّده إنتقال ابن نُوح (ع) إلى مُعسكر الخصوم، ممَّا جعل إبراهيم (ع) يُركِّز تركيزاً كبيراً على تكوين الأسرة المُسلمة، وقد ظهر ذلك جليّاً في دعوته لأبيه بالحُسنى، ودُعائه □ - تعالى - بالذُّرِّيَّة المُسلمة.

- المُقارنة مع فقه السِّياسة الإسلاميَّة:

عندما نُدقِّقُ في الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع)، ونُقارنه بالفقه السِّياسي الإسلامي، نجد كثيراً من المُشتركات من حيثُ البداية والخاتمة، ويمكننا عندما نُقارن بينهما تحديد النقاط الآتية:

1- كانت الإمامة في الفقه السِّياسي الإسلامي مُرتبطة بوجود دولة، ودُستور، ونُظَم ومُؤسَّسات، بينما كانت الإمامة في الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع) حركة تربويَّة إيمانيَّة.

2- جَمَعَ الفقه السِّياسي الإسلامي بين العدل المُؤهَّل للإمامة وبين العُصبة التي تحميه (الأئمَّة من قُريش)، كما أنَّ الدعوة الإسلاميَّة قد وطَّفت النِّظام القبلي الذي ينصُّ على شرعيَّة الحماية، وذلك لصالح حماية الدُّعاء، وعلى رأسهم الرسول الكريم، بينما كان النِّظام القبلي في رسالة إبراهيم (ع) خصماً عنيداً للرسالة، مُمثِّلاً بأبيه، نتج عنه - في النِّهاية - هجرة إبراهيم (ع) من العراق، وهكذا يجمع الإسلام بين ما يتصوُّره الكثيرون مُتناقضاً.

3- لقد كان في توحيد التَّوَجُّه والقبلة في رسالة إبراهيم (ع) بداية طيِّبة ومُباركة، غير أنَّ الإسلام أضاف إليها نظاماً عباديَّاً دقيقاً يُحقِّق الهدف والمقصد معاً.

4- إذا كان الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع) دَفْعَهُ إلى تحقيق الأمن الإجماعي والكفالة المُجمعيَّة عن طريق الدُّعاء، فإنَّ الفقه السِّياسي الإسلامي جعل الإستجابة للحاجة المُجمعيَّة أساساً يتعبَّد المُسلم به، وهو عمَلٌ رُبِّما يتجاوز في الأمر ثواب الصَّائم القائم.

5- كانت الهجرة عملاً عملاقاً لإبراهيم (ع) في تكوين الذُّرِّيَّة والأُمَّة المُسلمة، إلا أنَّ الهجرة المُحمَّدية كانت ترمي إلى هدف أعمق وأكبر؛ وهو العودة إلى مكان الهجرة، وضمُّه إلى الدِّولة الإسلاميَّة، بينما لم يكن ذلك حاصلًا في هجرة إبراهيم (ع)، وقد تمثَّل ذلك في الصِّراع الذي حصل آنذاك على أرض العراق.

6- اعتزل إبراهيم (ع) المجتمع المُشرك، بينما كان النبي الكريم يُصلِّي في الكعبة في العهد المكِّي، وفيها ثلاثمائة وستون صنماً، وفرق بين الإعتزال وبين مُهاجمة الباطل بالحجَّة المُفضية إلى إعتزاله معنويّاً وحسبيّاً، وقد ظهر الفارق واضحاً، فمع أنَّ ما تمثَّل له الصِّنميَّة من خطرٍ على الرِّسالتين، إلاَّ أنَّ الرسالة الأولى سلكت طريق التَّهديم باليد، بينما سلكت الرِّسالة الخاتمة طريق التَّدْرِج بالمنهج المرهلي.

كان مفهوم التّجمُّع في رسالة إبراهيم (ع) مبنياً على الحقِّ المحض، بينما كان الفقه الإسلامي السِّيَاسي يرمي إلى التعامل مع الآخرين على وفق سياسة المراحل والدِّرجات، فمنهم مَنْ يتمُّ التعامل معه على أساس الحقِّ المحض، وهم الذُّخيد؛ ومنهم مَنْ يبحث معه عن المُشتركات، وهذا غير مُستغرب على رسالة جاءت لتحقيق أمل المُجتمع، وتأسيس دولة، ونُظُم متكاملة، بينما كانت رسالة إبراهيم (ع) رسالة مرحلة اقتضتها مُستحقّات التّأسيس والبناء.

المصدر: كتاب الفقه السياسي الإسلامي